مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 09/ العـدد: 02 (2023)، ص 117-134

حركة الإصلاح الديني في عهد الملك نابونائيد الكلداني 555 . 539 ق م

The Religious reform movement during the reign of King Nabonid of Chaldean 555-539 BC

ط د. محمد العيهار[1*]، د. مختار ناير[2]
[1] جامعة وهران 1 جامعة أحمد بن بلة (الجزائر)، mohammed.laihar@univ-bechar.dz
[2] جامعة وهران 1 جامعة أحمد بن بلة (الجزائر)، nairmokhtar@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/07/21 تاريخ النشر: 2023/12/30

ملخص:

استمد الملك نابونائيد أفكاره الدينية من التراث العقائدي لبلاد النهرين، ويظهر أن محاولته الإصلاحية كانت جريئة في ظل الأزمة التي عرفتها بابل، فالوضع السياسي والعسكري والاقتصادي أخذ يتآكل في ظل تهديدات الشعوب الآرية التي أخذت تترصد الفرص لاجتياح الإمبراطورية، فالنصوص الأثرية الواردة عن الملك نابونائيد تظهر أن الملك كان يدرك خطورة الوضع الذي يفرض عليه إعادة بعث نشاط حضاري جديد يعيد مجد بابل الأول، ولن يتأتى له ذلك إلا بمواصلة حملاته العسكرية في مناطق الجوار، وإحياء عبادة الآلهة المهجورة وإعادتها إلى مدنها الأصلية، ورغم المعارضة الشديدة من كهنة معبد مردوخ الذين رأوا في أفكاره الدينية إنزالا لمكانة معبودهم فإنه سار على منوال الملوك الذين سبقوه أقدم على إحياء التقاليد الدينية القديمة وتجديد المعابد.

كلمات مفتاحية: عقيدة التوحيد، نابونائيد، الإله سن، الآلهة المهجورة، معبد مردوخ

Abstract:

King Nabonaid derived his religious convictions from the doctrinal heritage of Mesopotamia, and it appears that his reform attempt was bold in light of the crisis that Babylon witnessed at the time, as the political, military and economic situation began to erode and the threats of the Aryan peoples grew and they stalked opportunities to invade the empire. The archaeological texts of King Nabonaid show that the latter was aware of the danger. The situation required him to revive a new civilized activity that restores the glory of Babylon I, and this would only be possible for him through the continuation of his military campaigns in the neighboring regions, reviving the worship of abandoned gods and returning them to their original cities, despite the strong opposition of the priests of the Marduk temple who saw in his religious ideas a lowering of the status of their idol.

* المؤلف المرسل

Following the example of the kings who preceded him, King Nabonaid was able to revive ancient religious traditions and renovate temples.

Keywords: King Nabonaid. Babylon, Marduk. Aryan peoples

1. مقدمة:

من الباحثين من يعتقد أن الديانة العراقية لم تعرف تطورا خلال مراحلها التاريخية واكتفت بالتفريد كظاهرة دينية نهائية، و إذا تمعنا النظر في الحالة الدينية التي شهدها العهد البابلي الحديث، فإننا نلمس وجود ظاهرة توحيد ديني في ملامحه الشاحبة عرفت بشبه وحدانية نشأت نتيجة تطور فكرة الألوهة خلال فترة حكم الملك نابونائيد الكلداني 555 . 539 ق.م.

إن هذه ظاهرة جديرة بالاهتمام والدراسة، مما يعزز الافتراض العلمي على أن هذا الملك الكاهن أعاد صياغة معتقده التوحيدي من أصول شرقية قديمة رمزيتها قمرية وممارسة عرفانية، مما يضفي تصورا بوجود بصمة توحيدية عرفت بالتوحيد التجريدي ذو أصل طبيعي، لكون هذه التقاليد القمرية انتشرت في الشرق الأدنى القديم، في القرن السادس قبل الميلاد.

ومهما يكن فإننا سنتتبع هذه النزعة الدينية الطارئة لدى الكلدان و تأثيرها في الوضع السياسي ببلاد النهرين وشعوب الجوار، ومن هذا المنطلق سنحاول تحليل الظاهرة الدينية الكلدانية التي دعا إليها الملك نابونائيد، و التي تعد خطوة جريئة نحو الإصلاح الديني، احتوت شيئا من التوحيد، عرفناه اصطلاحا بالتوحيد الكلداني، وهو توحيد تجريدي طبيعي يعتقد بالظواهر الطبيعية على أنها تجليات إلهية، وعلى ضوء هذه المقدمة يجدر بنا أن نتساءل: ما أبعاد فكرة التوحيد الكلدانية ومحدداتها التاريخية والعقائدية ؟

2. نزعة التوحيد عند الكلدان

1.2 الكلدان:

ينحدر الكلدان –كلدو- Kaldu من القبائل السامية التي استوطنت جنوب العراق حوالي المنتصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، و ورد ذكرها في المصادر المسمارية الأشورية، واتخذت موقفا سياسيا معارضا لسلطة بابل الأولى، ثم صارت تحت نفوذ السلطة الأشورية تدفع الجزية لملوكها، وطيلة وجودهم بالمنطقة كان الكلدان يحاولون الإطاحة بالآشوريين حتى تمكنوا في حدود 626 ق.م من السيطرة على بابل بقيادة نابوبولاصر عن إثر تحالفه مع الميديين.

دام الحكم البابلي الأخير الكلداني قرابة قرن من الزمن من 626-539 ق.م، منها سبعة عشر سنة حكمها الملك نابونائيد أخر ملوك الكلدان الذي شهد عصره تحولا دينيا جديدا، فسارع إلى تجديد المعابد في السنوات الأولى من حكمه، و إعادة بعث تقاليد عبادة القمر " **سن**"، هذه التقاليد الدينية التي كانت منتشرة في مناطق عدة من الشرق الأدنى القديم دانت بها القبائل السامية منها الآرامية والعربية، مما يدفعنا للتساؤل: هل عرف الكلدان خلال هذه الفترة التاريخية ظاهرة التوحيد الديني بمعناه الصحيح بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد؟

منذ ذلك الحين واصل الكلدان التقاليد الدينية التي ورثوها على الآشوريين وجعلوا من المعبود مردوخ كبير المعبودات في بلاد النهرين، لكن ميلهم للتوحيد جاء نتيجة التأثير الآرامي لما بسطوا سيطرتهم السياسية والدينية والثقافية في الشرق الأدنى القديم، فالرموز العائدة إلى هذه الفترة التاريخية احتوت على رمز الهلال الذي يشير للمعبود "**سن**" ورمز الشمس الذي يشير إلى المعبود **شاماش** ورمز الزهرة الذي يشير للمعبودة **عشتار**، بينما ارتقى **نابو** ابن مردوخ صدارة الاهتمام الديني.

يبدو أن الكلدان أخذوا يميلون إلى إرجاع الظواهر الطبيعية إلى محرك واحد، وهذه النظرة تطورت تدريجيا توازيا مع تطور الدولة الجديدة، فتزايد اهتمامهم بمراقبة حركة

النجوم والكواكب ذلك أن الكلدان عرفوا ببراعتهم في التنجيم وقراءة الطالع والفأل، فأطلقوا أسماء محددة على معبود القمر حسب دورته فعندما يكون بدرا يعرف باسم " **نانا** "، وعندما يكون نصف دائري " **ونسون**" ، وعندما يتحول إلى هلال "**شيجاتارا**" ويرمز له بإشارة الثور (نعمة، 1994:74).

2.2: **محاولة إحياء التراث الثقافي الديني القديم**

لقد حاول ملوك بابل إحياء التراث الثقافي الديني القديم وإعادة بعثه من جديد ,الذي ساهمت في إثراءه فعاليات بشرية متعددة، إذ ساد شعور لدى الإنسان الشرقي القديم بفقدان الثقة من معبودات المدن التي لم يكن باستطاعتها إحداث تغيرات سياسية واجتماعية و اقتصادية حقيقية في حياة الإنسان اليومية، هذا الشعور العاطفي دفع ببعض الحكام و الحكماء إلى محاولة إيجاد تصور ديني جديد في مواجهة التحديات الداخلية والدولية الطارئة و خاصة الديموغرافية منها.

إضافة إلى ذلك فان ظاهرة التوحيد الديني أصبحت منتشرة في العديد من مناطق العالم القديم في الصين والهند واليمن وفارس، وتبلورت وسلكت طريقها في نفوس معتنقيها فكان أنبياء بني إسرائيل يبشرون بها منذ فترات سابقة فأخذت هذه النزعة الدينية تتسلل في البلاط الكلداني نفسه.

فالوثائق الأثرية المكتشفة في تيماء و حاران العائدة إلى أواخر العصر الكلداني دلت على انتشار واسع لعبادة "**سن**"، وممارسة العبادات العرفانية وهي من المعتقدات السرية و التي مارسها الكهنة على مستوى الطقوس و الشعائر (الماجدي،2014 :238)، ففي سومر وجد أثر للممارسات العرفانية في العقيدة "الديموزية **"الإله الراعي"** وتطورت حتى أخذت شكلها المتكامل، ومن غير المستبعد أن العاهل نابونائيد(556-539 ق.م) مارس طقوس عرفانية باطنية لما عرف عنه من ورع و تدين، وتراءت له أحلام كان لها تأثيرا شديدا في حياته، فكانت هذه الأحاسيس مألوفة لدى البابليين، وكان من عادة هؤلاء المتعبدون أنهم

يقضون الليل أملا في نزول وحي عليهم في الحلم وحتى المصريون أيضا أوردوا في سجلاتهم أن ما قاموا به من أعمال حثتها عليهم الأحلام (اخرون، 1980 :24).

إن هذه الحالة الدينية الجديدة في بابل هي شبيهة بالحالة الدينية بمصر القديمة حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وما يميز الفروق بينهما أن التوحيد العرفاني الاخناتوني المصري بشر بالإله جديد خفي مطلق للبشرية تجلى في الإله "اتون" قرص الشمس، بينما التوحيد العرفاني النابونائيدي الكلداني دعا إلى اله عالمي تجلى في الإله "**سن**" القمري، لكن كلتا الدعوتين باءتا بالفشل بقدر ما كانت دواعيها دينية إصلاحية فإنها كانت ذات خلفيات اديولوجية وسياسية (تشرني،1996 :79).

3.2 أصالة المعبود "سن"

كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت في عدة مواقع من بلاد النهرين مدى عمق معرفتنا عن طبيعة المعتقد القمري (اللطيف، 1977 :146) إذ عثر المنقبون الأمريكيون من جامعة شيكاغو على معبد خصص للمعبود القمر "**سن**" بمنطقة "خفاجة" يرجع تأريخه إلى 3000 ق. م، أي عصر "**جمدة نصر**" وهو من أقدم المعابد العراقية القديمة توفر على ممرات طقسية تكون عادة نهاية المزار، مليئا بالتماثيل النذرية بني على قمة تلة يشبه المعبد الأبيض بالوركاء، واستمر مكانا للعبادة حتى العهد الأشوري.

ظلت معابد "**سن**" تشرف عليها كاهنات، وذكرت الوثائق الأكادية أن سرجون الأكادي 2316 ق. م. أوكل ابنته **إنجيدوانا** لمنصب كاهنة معبد "**سن**" في مدينة أور، أما الملك نابونائيد 555 . 539 ق. م، وضع ابنته **بيل سيلتي نانار** كاهنة لمعبد "**سن**" بمدينة أور (يحيي، 2015،41)، وكانت والدة الملك نابونائيد أيضا كاهنة في معبد القمر بمدينة حاران، ترفع التسابيح والصلوات والأناشيد منها أنشودة تهدئة غضب الإله في الكسوف الثالث (لابات، 2006 :331).

إن أصالة المعبود "**سن**" تعود جذوره إلى عصور ما قبل التاريخية، ففي العصر الحجري الحديث اتخذته الجماعات البشرية الأولى معبودا لها، وكان يرمز له بقرني ثور

مرتبطا بالمعبودة الأم، وفي العهد التاريخي السومري حصل انقلاب عقائدي فتحول معبود القمر إلى أصل ذكوري، ونظرا لتعلق السومريين بالأجرام السماوية المضيئة المتحركة اتخذوا من القمر والشمس والكواكب معبودات، فعرف معبود القمر باسم " **سوين**" ثم " **نانا**" ونسبوه لأبيه " **إينليل**" وأمه " **نينليل** " وجعلوا له نينكال زوجة، وفي الأسطورة السومرية ورد ذكر خلق القمر والشمس وكيف أقامت المعبودات مركبا للمعبود "**سن**" :

حينما الآلهة العظام آنو وإنليل وإنكي. بمشيئتهم التي لا تحول وبأوامرهم العظمى . أقاموا مركبا لإله القمر.

لكي يجعلوا القمر المنجل يشع فيكون الشهر. لكي يجلب الضوء بمركب السماء.....يتصاعد مرئيا في كبد السماء (يحي، 2015 :130).

ويبدو من مضمون أسطورة خلق القمر أن المعبود سن ولد بطريقة غير شرعية، حيث قام الباحث **نوح كرامر N.Kramer** بنشر ما عثر عليه من كتابات تخض هذا الموضوع عام 1944 (كريمر، د.ت :165) ، إضافة إلى ذلك حضي معبود القمر "**سن**" منذ العهد السومري بمرتبة لا تقل أهمية عن المعبود " **انكي**" سيد الأرض فقد أوكلت له تنظيم التقويم الشهري والسنوي، ففي إحدى الألواح الطينية التي تعود لأيام العاهل " **أورنمو**" 2112-2095 ق.م ملك أور الثالثة وهو جالس على عرشه ممسكا بيده اليمنى صولجان الملك يظهر وهو يعلوه هلال (الطعان، 1981 :381) .

عرف المعبود "**سن**" عند الأكاديين " **نانار**" أي المنير و يرمز له بالهلال أو بقرني الثور القوي وجعلوه أعلى منزلة من الشمس وهي ابنة الزهرة، لذلك نقشت هذه المعبودات على المسلات الكلدانية، الهلال والشمس والزهرة ألفت ثالوثا سماويا مقدسا في بلاد النهرين (لابات،2006 :229) ، و احتل المعبود "**سن**" مركزا قويا بينها واتخذه عرب شبه الجزيرة معبودا لهم وسموه " **شهر**" وعرفه السبئيون باسم " المقة" و"ود" و"عم" وقدسته شعوب عديدة لاعتقادهم أن أشعته الفضية التي يلقيها على الأرض ليلا تهتدي بها القوافل التجارية .

كان المعبود " **سن**" رمزا للولادة المتعددة، حيث خصص له معبدين عظيمين الأول في مدينة أور جنوب العراق القديم والثاني في حاران شمال غرب آشور، ولمكانته العظيمة أطلق العراقيون القدماء اسم "**سن**" على بعض أسماء ملوكهم أشهرهم " **نرام سن**" ملك أكاد 2291 -2225 ق. م ـ **شو . سن** ملك أور 2038 -2030 ق م و**أبي سن** . ملك أور الثالثة 2039 - 2006 ق. م، وغيرهم.

عثر المنقبون على ترتيلات دينية تمجد المعبود "**سن**" والغريب أنها تضمنت نفسا توحيديا تعود إلى عصر أور الثالثة السومرية ومنها ما عرفت بأسطورة "**نانا**" :

أيها الرب، بطل الآلهة، ومثلك معظم في السماء والأرض. أيها الرب نانا رب أنشار بطل الآلهة. أنت الوالد المسامح الرحيم في قضائه.أيها الأب الذي أنجب الآلهة والبشر. أنت من يقرر المصاير إلى نهاية الأزمان ....

وفي ترتيلة أخرى عثر عليها في مكتبة آشور بانيبال نسبت إليه وهي صلاته كانت تتلى في الثالث عشر من كل شهر قمري لجلب البركات والغفران تضمنت هي الأخرى روحا توحيدية مجدت المعبود "**سن**"

أي "سن" . أي " نانار" أيها الإله الممجد ... يا " سن" . الفريد الذي يزود البشر بالنور ... ويوجه خطى ذوي الرؤوس السود ... نورك يملأ الأرض الواسعة (السواح، 2015 :346).

رغم أن عبادة القمر "**سن**" تقلصت في بداية العصر الآشوري الوسيط وإحلال الصدارة للمعبود شاماس، إلا أنها تنامت تدريجيا في مدينة حاران، أين وضع الأشوريون للمعبود القمر "**سن**" تمثالين يرمزان له وتماثيل أخرى صغيرة لأمراء العائلة رغبة في حصولهم على بعض الفوائد السحرية، ومن بين ما وورد في إحدى النقوش على لسان كاهن: ... **" نظرا لأن إله القمر المتوج يرتفع ويغيب بعد شهر فإنه يرسل إلى الملك سيدي بشائر لعمر طويل واستقرار الحكم وعظمة السلطة ".**

إن هذه النصوص الدينية التي أوردها الباحث البريطاني هاري ساغز يوحي مضمونها إلى وجود حس توحيدي كان يملكه ملوك بلاد النهرين (ساغر، 2008،305).

3 : حركة الإصلاح الديني في عهد الملك نابونائيد

1.3- شخصية الملك نبونائيد NABU-NAID

مثل عهد الملك نابونائيد بداية نهاية سيادة بلاد النهرين على الشرق الأدنى القديم، ولم يكن بمقدور هذا الملك أن يلعب الدور المنوط به لكون دولة الكلدان أخذت تعاني أزمات اقتصادية واجتماعية وسرعان ما دب الضعف في أجهزتها،إذ حاول تقوية سلطته السياسية وجعل من المعتقد الديني وسيلة ثقة بينه وبين كهنة معبد مردوخ، لمواجهة خطر الفرس القادم، وبقدر ما أظهر ولائه للمعبود مردوخ عظيم آلهة بابل إلا أنه لم يخف اهتمامه بالمعبود "**سن**"، فأقدم على اعادة ترميم معبد " **أي . هول هول** " في حران بعد أن دمره الميديون في معركته ضد الأشوريين، مما يدفعنا للتساؤل: هل الملك نابونائيد كان يسعى إلى رفع مكانة "**سن**" في مصاف المعبودات الوطنية ؟

اقترن اسم نابونائيد "**مبجل نابو**" **NABU-NAID** بالمعبود نابو رب الكتابة والقلم ودون اسمه بين ملوك أوروك ضمن القوائم الملكية (يحي، وثائق من الشرق الأدنى القديم، 2019،117) ،وأثناء عملية التنقيب الأمريكية التي ترأسها مكواير جيبسون Maguire Gibson عثر على إحدى المسلات بحاران نقشت عليها رموز القمر والشمس والزهرة وبجانبها صورة نابونائيد (سعيد، 1981 :68).

كان القالب الطيني قياسه 7.9-19 سم وسمكه 3.5 سم، يظهر صورة ملك ذو لحية طويلة ممسكا بعصاه المسندة على الأرض تصل إلى ارتفاع رأسه، وعلى جانبه الأيسر سيفا وكفه فوق مقبضه، ذو نهاية دائرية كان يرتدي لباسا طويلا عليه ثوب قصير يغطي رأسه، وبعد مقارنتها بصورة الملك الأشوري مردوخ ابلا ادينا الثاني 715 ق م الموجودة بمتحف برلين بالشرق الأدنى ومسلة تيماء بمتحف لوفر المرقمة AO 1505 وأخرى بالمتحف البريطاني90837 BR.A1 تبين أنها ترجع للملك نابونائيد.

ذكرت الوثائق الأثرية التي عنيت بشخصية نابونائيد أنه نشأ نشأة دينية و أن أمه "ادد كوبي" Adad Goppi " اعتنت بتربيته لكونها كاهنة معبد **" سن"** بحاران، وهي من شجعته في بلوغ عرش بابل(G.J.Gaad, 1958) ، بينما والده **نابو- بلاتسو – أقبي شكناكو** كان من شيوخ الآراميين.

تولى نابونئيد منصب سفير بمصر ممثلا للملك نبوخذ نصر عام 585 ق م، ويعتقد العديد من المؤرخين أنه لم يكن كلدانيا بل أراميا إلا أن البابليين وقفوا إلى جانبه وساندوه في اعتلائه عرش بابل بعد مقتل أحد ملوكها الصغار مما يعزز القول بالعلاقة السياسية المتينة بين الكلدان والآراميين (باقر، 1955 :12).

كان نابونائيد صهر الملك نبوخذنصر من إبنته **نيتوكريس** والدة ابنه ابيلشاصر، وذكره هيرودوت في تاريخه باسم لابينات labynete الذي كان وسيطا دبلوماسيا في الصراع بين الليديين و الماديين(Herodote, 1850) ، وفي النصوص المسمارية الواردة عن الحقبة التي حكمها نابونائيد ذكر نفسه انه شديد التعبد لمعبود القمر "سن".

في أواخر حكم نابونائيد وعلى غير عادته أهمل الاحتفال بعيد الأكيتو a-ki(e)-ti-a الممجد للمعبود مردوخ فأغضب كهنة المعبد، وهي أخبار وردت في حوليات نابونئيد نشرها بينشر pincher عام 1882 وأعاد نشرها سيدني سميث sidny smith عام 1924 ومما جاء في أخبار السنة التاسعة من حكم العاهل أن الملك لم يذهب في شهر نيسان Sarru.Ana.Nisanni إلى بابل لحضور عيد اكيتو ولم يغادر مدينة تيماء ولم يذهب الإله نابو إلى بابل ولم يخرج بعل " مردوخ" بسبب إلغاء احتفالات عيد "أكيتو" (خضر،1989 :115).

كان عيد " الأكيتو" يتم خارج المدينة وهو من أقدم أعياد السنة في بلاد النهرين لكونه بداية حساب السنة الزراعية والمالية والدينية، ويظهر أن العاهل أهمل احتفالات عيد الكيتو بسبب اهتمامه ببناء معبد **"سن"** في مدينة حران، ذلك أن هذا العيد ارتبط عند

ملوك بابل بتمجيد المعبود مردوخ، وكانت تقدم فيه الأضاحي وهدايا الملك وتأدية الصلاة (الأسود، 2011 :14).

يظهر أن المعبودات العظيمة في عهد نابونائيد لم تعد تؤدي وظيفتها المنوطة بها فانعكست سلبا على ممارسة سلطة الدولة سياسيا وعسكريا، ولم يعد للمعابد قدسيتها كما كانت عليه وازدادت سرقة المعابد بالرغم من ملاحقة السلطة للصوص وتحول المعبود نابو الأقل قيمة دينية في عصور سابقة إلى معبود أولي (باقر، 1955 :250).

وجدت نصوص أخرى أظهرت بوضوح ولاء نابونائيد للمعبود "نابو"، وذكرت أنه تسلم صولجان الملك منه ليضفي شرعيته وأحقيته بالملك، ويبدو أن تقربه من "نابو" لكونه معبود القلم والكتابة الذي حظي بمكانة رفيعة واهتمامات شعبية، ولعل تقرب نابونائيد من المعبود الشعبي نابو لإيمانه لعله يساعد في كشف الحقيقة المؤلهة للقمر باعتباره معبود ناقل للوحي الآمر بتبليغ الرسالة وربما كان اختلاؤه بواحة تيماء لتحقيق هذه الغاية الروحية.

2.3- علاقة الملك نابونائيد بكهنة معبد مردوخ:

أثارت علاقة نابونائيد بكهنة معبد مردوخ العديد من المناقشات بين الباحثين بخصوص السياسة التي اتبعها أثناء حكمه، فالنصوص الواردة من السجل الملكي لنابونائيد سواء الإدارية أو الاقتصادية أو القضائية معروفة، ذكرت توليه الحكم في يونيو عام 556 ق.م إلى غاية استلاء الفرس على بابل في أكتوبر عام 539 ق.م، دونت فيه أعماله خلال سبعة عشر من حكمه، وذكر أن السنة السابعة والثامنة والعشرة والحادية عشرة لم يحضر احتفالات عيد السنة البابلية لمكوثه بتيماء (خالد، 1967 :197).

ومن الملاحظ أن السجل الملكي لم يحتوي على كل أعمال الملك لأن أجزاء منه لم تكن محفوظة وجزء صغير منه مهشم اعتنى بدراسته الباحثون ليتبين لهم أبعاد سياسته الداخلية والخارجية ومواقفه الدينية، ومقارنتها بالنصوص التي عثر عليها في مواقع أخرى سواء في حاران أو تيماء أو بابل.

وقد اختلفت آراء الباحثين حول موقف نابونائيد من كهنة معبد مردوخ ببابل وانقسموا إلى رأيين : أحدهما يرى أصحابه وفي مقدمتهم الباحث لامبير Lambert أن علاقة الملك بكهنة معبد مردوخ كانت غير منسجمة ولم يكن الملك يوليهم اهتماما مثل ما كان يولي اهتمامه لكهنة معبد **"سن"**، بينما الرأي الأخر يرى أصحابه أن ما أثير من خلافات دينية ما هي الا دعاية نشرها أعداءه من الفرس الذين اتهموه بالهرطقة والكفر حتى تتاح لهم الفرصة للاستلاء على بابل (خالد، 1967 :197)

4: مقومات الحركة الإصلاحية الدينية في بابل

1.4- التوظيف السياسي للمعتقد القمري

قامت محاولات الإصلاح الديني التي تبناها الملك "نابونائيد" على إعادة إحياء عبادة القمر **"سن"**، وجاءت هذه المحاولة استجابة للتحولات السياسية والعسكرية التي عرفتها منطقة الشرق الأدنى في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، حيث كانت بابل الحديثة بحاجة ماسة إلى وحدة سياسية قوية قادرة على إنقاذ البلاد من الانهيار، ولم يعد للمعبودات العظيمة التي آمنوا بها وبجلوها مقاما للثقة.

في أواخر الدولة الكلدانية يبدو أن الملك نابونائيد حاول تأليف أسطورة تمجد المعبود **"سن"**، ونظرا لقلة المصادر الأثرية الكتابية التي تخص الموضوع فمن الصعوبة تأكيد ذلك، إلا أن القرائن دلت على أن الملك نابونئيد قام بتنفيذ مشروع إحياء الآلهة المهجورة وإعادتها إلى أماكنها، كما ذكر الباحثون انه كان مولعا بجمع الآثار القديمة، ولعلها مكتوبات خلفتها الشعوب السالفة في بلاد النهرين من تراث ديني وأدبي وسياسي وعسكري لصياغة حالة ثقافية جديدة قوية تكون قادرة على بعث الكيان البابلي وتثبيت ديمومته الاجتماعية (باقر، 1955 :12).

فظاهرة الاصلاح الديني لم تكن حكرا على الكلدان بل حتى العبرانيون والفرس عمدوا على إعادة إحياء التقاليد الدينية القديمة ذات الملمح التوحيدي وهي ظاهرة دينية عرفت عند البابليين كذلك، وذهب بعض الباحثين إلى أن الملك نابونائيد كان له تأثيرا مباشرا في

إلهام العبرانيين في صياغة معتقدهم اليهودي خلال القرن السادس قبل الميلاد (الماجدي، إنجيل بابل، 1998 :325).

إن مسألة التأثير والتأثر في المعتقدات الدينية الشرقية القديمة خلال هذه الفترة من التاريخ ومعرفة صاحب الأسبقية فيها تبدو معقدة والجزم فيها مستحيل في ظل ندرة المصادر الكتابية، ذلك أن الفكر الدين الشرقي القديم كان يقوم على تصورات مشتركة في مفهومه للالوهة وممارسته للطقوس واعتقاده بالأساطير.

إن هذه المحاولة الإصلاحية دفعت بالباحث "**لوي**" H.Lewy إلى القول أن الآشوريين والكلدان والآراميين كانت لهم توجهات وطنية وثقة بمعبودهم الرئيسي، الأمر الذي دفعهم إلى تكريس عبادة إله يستوجب تحويله إلى إله أممي يسير بخطى التوسعات العسكرية، وهذه الفكرة دفعت كل من الباحثين "**لوندزبرجير**" B.Landsberger و"**بوار**" Th.Bauer إلى الاعتقاد أن المشروع التوسعي الآشوري الذي عمل عليه ملوك آشور والمشروع التوسعي العسكري الذي جسده نبوخذ نصر الكلداني وما تلاه من الملوك كان يهدف في الأصل إلى بناء إمبراطورية سياسية عسكرية أممية موحدة تعتقد بمعبود أممي واحد.

ونظرا أن نابونائيد كان متأثرا بأعمال نبوخذ نصر السياسية والعسكرية والدينية فانه سارع إلى تجسيد هذه الفكرة على أرض الواقع، وهذه الفرضية تقدم بها الباحثان لتبرر المشروع الديني الجديد حتى تنضوي تحته كل الشعوب السامية ومنها الآراميين والعرب في وحدة دينية سياسية عسكرية تحول إلى جدار أمامي في مواجهة الهجمات الهندوأوروبية (P.Garelli, 1974 :248).

2.4. توظيف النبوة :

ولما كانت النبوة شكل من أشكال العرافة وظاهرة معروفة لدى ملوك العراق القديم فإنها مورست بالتنجيم فامتلأت المعابد بالرائيين والمنجمين في بلاد آشور وبابل الذين أسسوا نظاما للتنبؤ والعرافة لا مثيل له سار على تقاليده ملوك العراق القديم، ويظهر ذلك جليا في نبوءات الملك الكلداني نابونائيد الذي لم يخرج عن التقاليد المألوفة، فهو لم

يكن رجلا سياسيا وعسكريا وإداريا ودبلوماسيا فحسب، بل كان رجل دين تقي مخلص لمعبوده، ورغم ولائه للمعبود مردوخ عظيم بابل إلا أنه كان يفضل "**سن**" الذي نشأ على تربيته في حاران، ولشدة تعلقه بمعتقده فإن النصوص الواردة عنه عند توليه عرش بابل أشارت إلى أن الآلهة تعاقب عليه في المنام لتبشره بالملك، وأنه سيكون خليفة نبوخذ نصر الثاني متبعا لسنته برضا الإله مردوخ (مهران، 1990 :451).

أسرف الملك نابونائيد في إظهار تقواه وتجديده للمعابد وعين ابنته "**بل شلتي ننار**" كاهنة على معبد القمر بمدينة أور، كون هذه الأعمال المعمارية التي انعكست في إعادة بناء وإصلاح المعابد تحدث عنها في إحدى النصوص قائلا "**إن الإله مردوخ قد أتاني في المنام وأوعز إلي معبد أي هلهول في حاران** "، وأمره أي الإله مردوخ بجمع شمل الآلهة الصغار (مرعي، 1995 :31)، ما يميز الملك نابونائيد عن باقي ملوك آشور وبابل أنه شخصية سياسية جريئة فرض سلطته على كهان المعابد إعلاء لمنزلة معبوده "**سن**".

الكتابات البابلية تظهر تعلق نابونائيد بعبادة معبود القمر "**سن**" وأن أعماله كانت بأوامر إلهية تلبية لنداء مردوخ الذي أمره بتجديد معبد **أي هول-هول** بحاران، وكان الكهنة يعلمون أن نابونائيد يخضع إلى أوامر الوحي الذي يأتيه في المنام، وكثيرا ما كان يستدعي مفسري الرؤى لاستشارتهم وورد في إحدى النصوص **"لم أتوقف عن الذهاب إلى المنجم ومفسر الأحلام ...."** وهي نفس الأوامر التي دعته إلى الخروج من تيماء **" نمت وفي الليل كان الحلم مخيفا حتى (سمعت) كلمة (الإله) السنة التي اكتملت وحان الوقت الذي أمر به نانار (أمرني بالخروج)"** (فايز، 2000 :61).

اعتقد نابونائيد أن مردوخ يوحي له بواسطة الأحلام ليحقق رغباته، وكان يشارك الفئات الاجتماعية في إحياء المناسبات التعبدية التي تقام في بابل أو في حاران، وعرف عنه أنه تنبأ بانتصار ملك الميديين "**كورش**" على أعدائه، إذ تروي القصة أن نابونائيد اعتذر للإله مردوخ لما دعاه إلى دخول مدينة حاران فأجابه أنها تحت سيطرة ملك "**آمان- ماندا**"* فتجلى له إله مردوخ في الحلم قائلا " **إن الآمان ماندا الذين تتحدث عنهم، هم وبلدهم**

والملوك لن يبقوا في الوجود في السنة الثالثة القادمة سأجعل خادمه الشاب قورش ملك انشان، يفرق جيوش الآمان . ماندا الكثيرة ويطردهم"(G.Roux, 1992 :384) ، وفي سنة 553 ق.م تأكدت نبوءة نابونائيد لما قام قورش ملك "آنشان" بأسر "استياجس" ملك "آمان . ماندا" وأخذه مقيدا إلى بلاده، وعرفانا لذلك سارع نابونائيد في إعادة تجديد معبد **الايساجيلا** الخاص بمردوخ.

3.4. الحضور السياسي والثقافي للآراميين:

رغم ما يشوب التراث الآرامي من غموض إلا أن الكتابات الأثرية أشارت إلى وجود معتقد توحيدي قديم عرفته هذه القبائل، ذلك أن التاريخ الحضاري الخاص بهذه المجموعة الإثنية يعود إلى قرابة ثلاث آلاف سنة خلت، حيث شكلت القبائل الآرامية بيوتات أظهرت عناصرها الحضارية ما بين 1500-500 ق.م، ففي فترة استقرارهم المبكر في مدينة حاران وعلى هذا النحو يكون التوحيد الآرامي من أقدم المعتقدات الشرقية ، فالمعبود "حد" أو "**حدد**" اله العواصف وهو معبود خفي غير مجسد على خلاف معبودات الأمم الأخرى، فالآراميون لم يعرفوا سواه لكونهم أصحاب نزعة توحيدية فطرية، ولم يعرفوا التفريد أو التعدد كما هو الحال عند السومريين (الماجدي، إنجيل بابل، 1998 :57).

ساهم الأراميون بثقافتهم ولغتهم مساهمة عظيمة وكانوا ينظرون إلى الكلدان حلفاء، مما خلق لهم اطمئنانا في بناء مصالحهم، و ما يفسر ذلك وصول الملك نابونائيد سدة الحكم في بابل بفضل مساندتهم له لكونه من أصول آرامية، وذكرت النصوص الأثرية أن الملك نابونائيد كان والده آراميا حاكما لإحدى المقاطعات بحاران، أما أمه كانت كاهنة بمعبد "**سن**" (شهر)، وورد في نصين منقوشين بالحلة في العراق على أنه من أصل ملكي (مرعي، 1995 :206).

لعب الآراميون دورا سياسيا كبيرا في تأسيس الدولة البابلية الحديثة، وآزروا ملوكها وسعوا إلى تتويج الملك نابونائيد وبلوغه سدة الحكم، ولم يكن كهنة معبد القمر "**سن**" بعيدين عن ذلك وحاولوا فرض تقاليدهم الدينية ذات مسحة توحيدية.

ولكون الآراميين من الشعوب الشرقية التي سكنت مدينة حاران فإنهم عرفوا عقيدة التوحيد مبكرا، ونعتقد أن حضور هذا التراث العقائدي العظيم كان له الأثر البارز في تكوين شخصية نابونائيد الروحية.

4.4. البعد الإستراتيجي التجاري:

قام الملك نابونائيد بحملة عسكرية خاطفة على مدينة تيماء في صيف 553 ق.م متبعا خطة الآشوريين مما حدث تحولا بين الكلدان والعرب لكونها مركزا تجاريا دوليا ومقرا دينيا لعبادة إله القمر **تير** (فاضل، 2000 :146)، فالنقوش الثمودية التي عثر عليها جنوب غرب تيماء قام خالد السكوبي بمسحها اتضح أنها تعود للملك نابونائيد، وربما كتبها أحد أتباعه، وهي مقسمة إلى أربعة نقوش تظهر علاقة الملك بالقبائل العربية وتتفق مع النقوش المكتشفة من حيث محتواها بالنقوش البابلية، إذ تشير إلى رغبة الملك في السيطرة على الطرق التجارية (طيران، 2003،1150)، إضافة إلى خط كلداني عربي برز في القرن السادس قبل الميلاد نتج عنه تفاعلا ايجابيا قويا ساهم فيه كل من الآراميين والعرب، مما أفرز تأثيرا ثقافيا بين المجموعتين، ويبدو أن الكلدان لما حاربوا القبائل العربية بقيادة نبوخذ نصر عام 599 ق.م، كان من أجل تأمين الخطوط التجارية وتأكيدا على دورهم السياسي والعسكري الموروث عن الآشوريين.

5. خاتمة :

شهدت بابل في آخر عهدها إصلاحا دينيا قام بها الملك نابونائيد ذلك أن حركات الإصلاح الديني لم تكن غريبة عن مجتمعات الشرق الأدنى القديم، وخاصة في الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد .

ففي بابل كان الوضع يشهد أزمة حادة تنذر بانهيار الإمبراطورية البابلية الحديثة إضافة إلى التهديدات العسكرية الآرية، فكان على ملوك بابل أن يواجهوا هذه الأزمات بفرض سيطرتهم السياسية والعسكرية والتجارية داخل الدولة وخارجها.

ففي عهد آخر الملك نابونائيد فرض عليه إعادة بعث نشاط حضاري جديد يعيد مجد بابل الأول ولا يقوم هذا المشروع إلا على ثلاثة أسس هي:

- مواصلة الحملات العسكرية في مناطق الجوار سورية وشمال شبه جزيرة العرب
- إحياء عبادة التقاليد الدينية المهجورة وفي مقدمتها تقاليد المعبود "**سن**"
- محاولة توحيد القبائل السامية وفي مقدمتها القبائل الآرامية والعربية
- السيطرة على طرق تجارة القوافل الدولية
- إعادة بناء التمركزات السكانية التي تظهر معارضة شديدة للسلطة

وفي غياب كثير من النصوص الأثرية حاول بعض الباحثين تقديم فرضيات ارتكزت على البعد السياسي الديني للاستدلال على حضور التوحيد الديني ببابل خلال هذه الفترة من التاريخ، ولم تكن تخرج هذه الدعوة عن مبدأ النبوة لتبرير شرعية حركتها بين الناس .

كما شهدت هذه الفترة حضورا سياسيا وثقافيا آراميا كان من أثره حملة الملك نابونائيد على شمال شبه جزيرة العرب، وما نخلص إليه أن ما قام به الملك نابونائيد محاولة جريئة جديرة بالبحث تؤكد الصلة الحضارية بين شبه زيرة العرب وبلاد النهرين.

6 . قائمة المصادر و المراجع:

- حسن نعمة،موسوعة ميتولوجيا وأساطير الشعوب القديمة،بيروت،دار الفكر اللبناني،1994.
- هاري ساغر، عظمة آشور، تر:خالد اسعد-احمد غسان،ط2، دمشق، دار رسلان،2008.
- أسامة عدنان يحي،الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم،ط1،بغداد،اشوربانيبال،2015.
- أسامة يحي تاريخ الشرق القديم دراسات وأبحاث,ط1 بغداد،اشوربانيبال،2015.
- بيومي مهران، تاريخ العراق القديم،الإسكندرية،دار المعرفة الجامعية،1990.
- جواد حسن فاضل،حكمة الكلدانيين،ج1،بغداد،بيت الحكمة،2000.
- حكمت بشر الأسود،اكيتو عيد رأس السنة البابلية الآشورية،ط1،أربيل عن المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية،السلسلة 2011.1.
- خزعل الماجدي، إنجيل بابل،ط1،عمان،منشورات الأهلية،1998.

- خزعل الماجدي، كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدد و التوحيد،ط1،دار البيضاء المغرب،المركز الثقافي العربي،2014.

- سعيد بن فايز السعيد،حملة الملك البابلي نابونيد على شمال غرب الجزيرة العربية،ط8،الرياض،الجمعية التاريخية،2000.

- صمويل كريمر،من الواح سومر،تر: طه باقر،بغداد،مكتبة المثنى(ذ-ت)

- طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة،ط2،بغداد،شركة التجارة والطباعة المحدودة،1375هـ-1955م.

- عبد الرضا الطعان،الفكر السياسي في العراق القديم،عن وزارة الثقافة و الإعلام،سلسلة دراسات 282،بغداد،دار الرشيد،1981.

- عيد مرعي، نابونيد أخر ملك بابلي،حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية،العدد 18،دمشق،منشورات جامعة دمشق،1995.

- فراس السواح، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، دمشق، دار علاء الدين، (د ـ ت).

- محمد عبد اللطيف،تاريخ العراق القديم،الإسكندرية،مكتبة الإسكندرية،1977.

- مؤيد سعيد بسيم، صورة حديثة لنابونائيد ملك بابل،ج1-ج2، مج34، كانون الثاني،مجلة سومر، بغداد، عن المؤسسة العامة للآثار والتراث،1981.

- ه.فرانكفورت وآخرون،ما قبل الفلسفة،تر:جبرا إبراهيم جبرا ط2 ، بيروت ،المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1980.

- هنري لابات، وموريس فيرا وآخرون،سلسلة الأساطير السورية،ديانات الشرق الأوسط، تر: موفيد عرنوق،ط2،دمشق،دار علاء الدين،2006.

- ياروسلاف تشرني،الديانة المصرية القديمة،تر: احمد قدري،ط1،القاهرة،دار الشروق،1996.

- يحي عدنان، وثائق من الشرق الأدنى القديم،القوائم الملكية،ط1، بغداد، اشوربانيبال للثقافة،2019.

-آمان- ماندا: هي مجموعة إثنية عسكرية تناولتها وثائق بابل القديمة ومملكة إيسن بين 2017-1985 ق.م وكانت تشن غزواتها على ممالك بلاد النهرين ينظر:

-خالد الدسوقي،نابونائيد،مجلة الدارة،عدد2،الرياض،مؤسسة دارة الملك عبد العزيز،1967.

-خضر النعيمي،أعياد رأس السنة البابلية، ج1-ج2،مج46،مجلة سومر،بغداد،عن المؤسسة العامة للآثار والتراث،1989-1990.

-سالم بن أحمد بن طيران،أهمية النقوش الكتابية القديمة كمصدر لتاريخ الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام ،منشورات أبحاث اليرموك،سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية،مج:20،عدد 2-ب،جامعة اليرموك،المملكة السعودية،2003.

- G.J.GADD: The Harran, Inscription of Nabonidus,Anatolian,Studie Journal of British Institute of Archaelogy at Ankara,1958,VIII.

- G.J.GADD: The Harran, Inscription of Nabonidus,Anatolian,Studie Journal of British Institute of Archaelogy at Ankara,1958,VIII.

- G.J.GADD: The Harran, Inscription of Nabonidus,Anatolian,Studie Journal of British Institute of Archaelogy at Ankara,1958,VIII.

- G.J.GADD: The Harran, Inscription of Nabonidus,Anatolian,Studie Journal of British Institute of Archaelogy at Ankara,1958,VIII.

-G.Roux :Ancient Iraq,ed:3,London,pub,Penguin Books,1992.

Garelli (P): et Nikiprowetzky (V): Le Proche-Orient Asiatique,Puf,Paris,1974 .

-Herodote: Histoire, LI-CH188,Tra:Larcher,Paris,Charpentier,1850.

Selim.F.Adah :Umman-Manda and its sinificance in the first Millennium BC,D.C.A.H.University of Sydney,2009.